علي محمد الشبيبي: من أجل تعليمٍ يحرّر الإنسان (5/4)



التربوي علي محمد الشبيبي (1913-1997)

الحلقة الرابعة:

المدرسة فضاء للثقافة والحرية والكرامة

مقدمة

تكشف الشهادات التي عرضناها في الحلقة الثالثة بجزئيها أن أثر علي محمد الشبيبي في تلاميذه لم يكن وليد درس عابر أو مادة دراسية محددة، بل نتيجة رؤية تربوية أوسع كانت ترى في المدرسة مؤسسة لبناء الإنسان بكل أبعاده الفكرية والأخلاقية والثقافية. فقد تحدث تلاميذه عن الأدب والقراءة، وعن المسرح المدرسي، وعن الثقة بالنفس، وعن القيم التي ظلوا يحملونها معهم بعد عقود من مغادرة الصفوف الدراسية.

ولعل ما يميز تجربة الشبيبي أنه لم ينظر إلى الأنشطة الثقافية والفنية بوصفها ترفاً مدرسياً أو ملحقاً ثانوياً بالمناهج، بل جزءاً أصيلاً من العملية التربوية. كما لم يفصل بين الانضباط المدرسي واحترام كرامة التلميذ، فكان يرى أن التربية الحقيقية تُنشئ إنساناً حراً ومسؤولاً، لا فرداً خاضعاً للإذلال أو الخوف.

وفي هذه الحلقة نتوقف عند هذين الجانبين المتكاملين من تجربته: المدرسة بوصفها فضاءً للثقافة وبناء الشخصية، والتربية بوصفها ممارسة قائمة على الكرامة والحرية لا على العبودية والإخضاع.

سادساً: المدرسة فضاء للفن والأدب وبناء الشخصية

لم يفصل الوالد بين التعليم والثقافة، ولم ينظر إلى المسرح المدرسي والخطابة والأدب والشعر بوصفها أنشطة هامشية لا قيمة لها أمام الدروس المقررة. فقد كانت هذه الأنشطة، في تجربته، وسائل لتطوير شخصية الطالب، وتنمية قدرته على التعبير، والعمل مع الآخرين، ومواجهة الجمهور بثقة.

وقد انعكس ذلك في النشاط المدرسي الذي عرفه تلاميذه، وفي مشاركتهم في مباريات الخطابة، وفيما حققته المدرسة من نجاح في تقديم المسرحيات. ولم تقتصر مساهمة الوالد في النشاط الثقافي المدرسي على مسرحية «فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد»، بل أعد وأخرج أيضاً مسرحية «أبو القاسم الطنبوري» في مدرسة فيصل الأول بالناصرية، وصاغها بلغة عربية مبسطة تلائم أعمار التلاميذ وقدرتهم على الأداء والاستيعاب. وقد شارك فيها عدد من التلاميذ، من بينهم أخي الأكبر كفاح، الذي أدى دور أبي القاسم الطنبوري، ونال جائزة تشجيعية -حذاء جديد لإضفاء جو من الطرافة والتشجيع- من مديرية المعارف بعد نجاح المسرحية.

كما أولى الوالد اهتماماً بمسابقات الخطابة المدرسية، وكان يُكلَّف بإعداد كلمات لبعض التلاميذ وتدريبهم على إلقائها. ومن النماذج كلمة «بيتنا والشارع والمدرسة» التي أعدّها لتلميذه الراحل عبد الغني كاظم الطيار، في الصف السادس خلال العام الدراسي 1957-1958، ونالت مدرسة الحسين في كربلاء الجائزة الأولى. واللافت في هذه الكلمة أنها لم تكن تدريباً على الإلقاء أو البلاغة فحسب، بل كانت تعبيراً عن رؤية تربوية متكاملة. فقد كان الوالد ينظر إلى البيت والشارع والمدرسة بوصفها البيئات الثلاث التي تشترك في تكوين الطفل وصياغة شخصيته، وكان يرى أن التربية لا تستطيع أن تنجح إذا تجاهلت تأثير الفقر والخرافة والفوارق الاجتماعية والبيئة الثقافية المحيطة بالناشئة.

ومن النماذج الأخرى كلمة **«مدرستي وكتابي ودموعي»** (ص 738)، التي كتبها الوالد في 19 آذار 1966، بناءً على تكليف من مدرسة اللغة العربية لإعداد كلمة تُلقى في إعدادية البنات ضمن مسابقة خطابية. وتكشف هذه الكلمة عن قدرته على توظيف الأدب في معالجة قضايا تربوية واجتماعية، واختيار أسلوب يناسب الجمهور الذي يخاطبه. وتكتسب هذه الواقعة دلالتها من أن المكلَّف بكتابة الكلمة لم يكن متخرجاً من جامعة أو مختصاً أكاديمياً بالأدب، بل معلماً ابتدائياً بنى ثقافته العربية والأدبية الواسعة بجهده الشخصي وقراءاته المستمرة. فالنص، على ما فيه من طرافة وأدب، يكشف فهماً عميقاً للعلاقة بين المدرسة والبيت، وللضغوط التي تواجه الطلبة، ولأهمية التعامل معهم بوصفهم بشراً لهم مشاعرهم وهمومهم، لا مجرد متلقين للدروس.

فقد جعل الطالبة تتحدث بلسانها عن علاقتها بالمدرّسة، ومعاناتها مع كثرة الدروس والواجبات، وما تواجهه من أعباء أسرية قد تؤثر في تحصيلها الدراسي. ومنذ افتتاح الكلمة، تظهر عناية الوالد باللغة والصورة الأدبية، إذ يقول على لسان الطالبة في مطلعها:

«لست أدري أأفي الحديث حقه، أم يقصر البيان؟ أيجري حديثي على مسامعكن مجرى النهير العذب في الساقية؟ أم يتعثر فيتعكر؟» (موضوعة "مُدرِستي وكتابي ودموعي" ص 738).

إن هذه المقدمة، بما فيها من تشبيه ورهافة في التعبير، لم تكن استعراضاً لغوياً منفصلاً عن الموضوع، بل تهيئة نفسية للجمهور، وإشارة إلى أن الحديث سيكون محاولة للتواصل الصادق بين التلميذة ومعلماتها. وهذه القدرة على تكييف الأسلوب مع المناسبة والجمهور من السمات التي تميز بها الوالد في كتاباته المدرسية؛ فهو لم يكن يكتب كلمة موحدة تصلح لكل مناسبة، بل كان يختار لغتها وصورها وطريقة عرضها وفق الغاية منها ومن سيتلقاها.

وفي حديثه عن المُدرّسة، لم يكتفِ بتأكيد مكانتها، بل ربط الاحترام الذي تستحقه بمسؤوليتها التربوية، وكتب على لسان الطالبة:

«المُدَرِّسَةُ أُمٌ، بل هي أحنى من الأم، لأن الأم كثيراً ما تتغلب عندها عاطفة الأمومة على واجب التربية، الذي يعتمد على العلم والعقل، وأصول التربية» (موضوعة "مُدرِستي وكتابي ودموعي" ص 738). في هذا التصوير يرفع الوالد مكانة المُدرّسة، لكنه لا يمنحها سلطة مطلقة على الطالبة؛ بل يربط هذه المكانة بمسؤولية التربية والعلم والعقل. فهو يميز بين الحنان العاطفي الذي تقدمه الأم، وبين الدور التربوي الذي يتطلب معرفة بأساليب التعليم وفهم نفسيات الطلبة، والقدرة على التوجيه والتقويم.

كما دعا إلى أن تتفهم المُدرّسة الظروف النفسية والاجتماعية لطالباتها، وأن تبحث عن أسباب تعثرهن بدلاً من الاكتفاء بالعقوبة والتوبيخ. ومن الصور التي استخدمها للتعبير عن ضرورة العدالة في التعامل معهن قوله:

«وكلنا نبات يجب أن يُسقى من ماء واحد!» (موضوعة "مُدرِستي وكتابي ودموعي" ص 740).

أما في حديثه عن الكتاب والمناهج، فقد انتقد كثرة المواد وحشو الأذهان بالنظريات الجافة، مؤكداً ضرورة تبسيط المعرفة وربطها بالتطبيق، فقال:

«فلا خير في علم تُحشى به الأدمغة نظريات جافة، تتبخر بأسرع وقت، فلا يربح منها الطالب سوى الضنى والمتاعب» (موضوعة "مُدرِستي وكتابي ودموعي" ص 741).

وتكشف هذه العبارة عن فهمه أن التعليم لا يُقاس بكمية المعلومات التي يتلقاها الطالب، بل بقدرته على استيعابها والاستفادة منها. كما تكشف الكلمة عن اهتمامه بالظروف الأسرية والاجتماعية للطالبات، وعن إدراكه أن التربية لا تنجح إذا تجاهلت ما يحيط بالمتعلمة من أعباء وضغوط.

وهنا أكتفي بهذا العرض المختصر لبعض المعاني والأفكار التربوية التي تضمّنتها كلمة المربي علي محمد الشبيبي «مدرستي وكتابي ودموعي»، على أن أعود إليها في مقال مستقل أتناول فيه أسلوبه ومنهجه التربوي من خلال قراءة أكثر تفصيلًا لهذه الكلمة.

وهكذا لم يكن النشاط الثقافي في نظر المربي علي محمد الشبيبي زينة تضاف إلى التعليم، بل امتداداً له، ووسيلة لتكوين الشخصية وصقل الوعي وتنمية القدرة على التعبير والحوار. إن قيمة هذه التجربة لا تكمن في الفوز بمسابقة أو تقديم عرض مسرحي فحسب، بل فيما يكتسبه الطالب من ثقة بالنفس، وقدرة على الحوار، واحترام للعمل الجماعي، وتذوق للأدب والفن.

وإذا كانت المدرسة اليوم تعاني من نقص الأبنية والمستلزمات وضيق الوقت المتاح للتدريس، فإن ذلك لا يقلل من أهمية الأنشطة الثقافية والفنية؛ بل يجعل التخطيط لها أكثر ضرورة، ولو بإمكانات بسيطة تتناسب مع ظروف كل مدرسة.

فالتربية الشاملة لا تتحقق بتدريس المواد الأساسية وحدها، وإنما بتوفير فرص تساعد التلميذ على اكتشاف مواهبه وتطويرها. ومن الخطأ أن نتصور أن المدرسة تؤدي وظيفتها كاملة لمجرد أنها تنهي المنهج وتُجري الامتحانات.

سابعاً: التربية على الكرامة لا على العبودية

من المواقف التي تكشف بوضوح عن شخصية الوالد التربوية ما رواه عن حادثة وقعت حين جاء عبد الحميد سوادي، مدير تجنيد منطقة كربلاء (سنة 1958/1957)، محتجًا ومهددًا بسبب معاقبة ابنه لسوء تصرفه في الصف. وبعد أن شرح الوالد سبب العقوبة، تراجع الرجل واعتذر.

وقد كتب الوالد عن الموقف:

«نادى على ابنه، أمره أن ينحني فيقبل قدمي. أمسكت بالتلميذ وقلت: لا يا سيد أنا لا أربي تلاميذي على العبودية، إني أربي للحرية. صاح: قبل يده. قلت ولا هذا أيضا. أرشده كيف يجب أن يستفيد ويتعلم ويخط مستقبل حياته. ..... بعد هذا الحادث صار الرجل ممن يطلب ودي، وقد يفاجئني بوقوف سيارته يعرض علي أن يوصلني حيث أريد.

أما زوجته النبيلة فقد كتبت إليّ مع إحدى بناتي تطلب مني أن أجلسه إلى جانب ولدي محمد وأن لا أعفيه من أي واجب. وتكرر شكرها لي. أنا فخور أني أفعل ما يتلاءم وفهمي لقواعد التربية، وما تمليه علي ثقافتي وأخلاقي» (موضوعة "مدرسة الحسين" ص 551).

إن هذا الموقف، كما رواه الوالد، يوضح الفرق بين العقوبة التربوية التي تهدف إلى تصحيح السلوك، والإهانة التي تنتقص من كرامة الطفل. فقد رفض أن تتحول محاسبة التلميذ على خطئه إلى مشهد من الخضوع الشخصي، وأصر على أن يتعلم كيف يتحمل المسؤولية ويصلح سلوكه.

وتبرز هنا مسألة لا تزال مهمة في مدارسنا: كيف نوازن بين حق المعلم في الحفاظ على النظام داخل الصف، وحق التلميذ في الكرامة والأمان؟ وكيف نواجه تجاوزات بعض الطلبة، أو الاعتداء على المعلمين، من دون العودة إلى أساليب العنف والإذلال؟

إن احترام المعلم لا يتحقق بتخويف الطالب، كما أن حماية الطالب لا تعني التساهل مع الإساءة إلى المعلم. المطلوب هو نظام تربوي واضح وعادل، يحمي الطرفين، ويجعل المساءلة مرتبطة بالسلوك، لا بالمكانة الاجتماعية أو النفوذ العشائري أو السياسي.

وما فعله الوالد في هذه الحادثة يعكس إيمانه بأن المدرسة ينبغي أن تربي للحرية والمسؤولية، لا أن تعيد إنتاج علاقات الخضوع التي قد يجدها الطفل في محيطه الاجتماعي.

خاتمة

في المحورين السابقين تظهر ملامح رؤية تربوية متكاملة لا تكتفي بتعليم الطالب ما ينبغي أن يعرفه، بل تهتم أيضاً بما ينبغي أن يكونه. فالمسرح والخطابة والأدب والأنشطة الثقافية لم تكن، في نظر علي محمد الشبيبي، وسائل ترفيه أو إضافات هامشية، وإنما أدوات لبناء الثقة بالنفس، وتنمية الخيال، وتعليم العمل الجماعي، وتوسيع أفق التلميذ. كما أن احترام كرامة الطالب لم يكن شعاراً نظرياً، بل ممارسة تربوية تجلت في مواقف عملية تؤكد أن الانضباط لا يتعارض مع الحرية، وأن التربية لا تحتاج إلى الإذلال كي تنجح.

غير أن تجربة الشبيبي لم تتوقف عند المدرسة وحدودها. فقد كان يرى أن المعلم جزء من المجتمع، وأن دوره لا ينتهي عند باب الصف، بل يمتد إلى قضايا الناس وهمومهم وأسئلة الوطن الكبرى. ومن هنا تنتقل حلقات هذه السلسلة من الحديث عن المدرسة والتلميذ إلى الحديث عن المجتمع والوعي العام ومسؤولية المعلم تجاههما.

وفي الحلقة الأخيرة نتوقف عند رؤية علي محمد الشبيبي لدور المعلم في المجتمع، وموقفه من الطائفية والتمييز، وإيمانه بوحدة المعلمين، وثقته بالإنسان، ثم نستخلص ما يمكن أن نتعلمه اليوم من هذه التجربة التربوية الطويلة.

في الحلقة الخامسة والأخيرة: **«التعليم وبناء الإنسان والمجتمع»**

تنويه عام لجميع الحلقات: إن كافة النصوص الواردة بـ **خط غامق** ومحصورة بين علامتي تنصيص «...» هي اقتباسات مباشرة من كتاب «الرائد علي محمد الشبيبي ذكريات التنوير والمكابدة» الصادر عن دار المدى (الطبعة الثانية، 2021) ويشير الرقم الموجود بين قوسين (...) إلى رقم الصفحة في الكتاب.

يتبع ...

الكاتب: محمد علي الشبيبي
السويد 17-11-2026